242509 ـ هل يختلف الحساب حسب عمر الانسان في الدنيا ؟

السؤال

هل الحساب يتفاوت بطول عمر الانسان بمعنى : هل الإنسان الذي عاش 80 سنة وأخذ فرصة كافية للتوبة أو لزيادة حسناته كمثل الذي مات وهو في العشرين أو الثلاثين من عمره ، وهل يؤخذ هذا بعين الاعتبار بجانب الأمور الأخرى مثل نوع الاعمال ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أبانت نصوص الشرع وأشارت إلى أن مدة التعمير في هذه الدنيا لها أثر في الحساب والعقاب ؛ ومن ذلك :
عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ) رواه الترمذي (2417) وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

ويزيد هذا المعنى وضوحا حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ ، حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً) رواه البخاري (6419) .
قال ابن حجر رحمه الله تعالى :
" قوله : (أعذر الله) الإعذار إزالة العذر ، والمعنى : أنه لم يبق له اعتذار ، كأن يقول : لو مُدَّ لي في الأجل لفعلت ما أمرت به ، يقال : "أعذر إليه" إذا بلَّغه أقصى الغاية في العذر ومكَّنه منه " انتهى من" فتح الباري " (11 / 240) .
وقال الله تعالى : (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) فاطر /37 .
قال ابن كثير رحمه الله تعالى :
" (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ) أي : أوما عشتم في الدنيا أعمارا ؛ لو كنتم ممن ينتفع بالحق ، لانتفعتم به في مدة عمركم ؟
وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد هاهنا ، فروي عن علي بن الحسين زين العابدين أنه قال: مقدار سبع عشرة سنة .
وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة ، فنعوذ بالله أن نُعَيَّر بطول العمر ، قد نزلت هذه الآية: (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ

تَذَكَّرَ) ، وإن فيهم لابن ثماني عشرة سنة ...

عن ابن عباس قال : العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله : (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ) ستون سنة .

فهذه الرواية أصح عن ابن عباس ، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضا ... " .

انتهى من " تفسير ابن كثير " (6 / 553) .

وجعل الله تعالى إطالة عمر الكافر وإمهاله في هذه الدنيا سببا لزيادة العقاب عليه ؛ حيث قال الله تعالى :(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) آل عمران /178 .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى :

" قال : (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) : فالله تعالى يملي للظالم ، حتى يزداد طغيانه ، ويترادف كفرانه ، حتى إذا أخذه أخذ عزيز مقتدر ، فليحذر الظالمون من الإمهال ، ولا يظنوا أن يفوتوا الكبير المتعال " انتهى من " تفسير السعدي " (ص 158) .

وقال الشيخ الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى :

" ذكر في هذه الآية الكريمة أنه يملي للكافرين ، ويمهلهم لزيادة الإثم عليهم ، وشدة العذاب . وبين في موضع آخر أنه لا يمهلهم متنعمين هذا الإمهال إلا بعد أن يبتليهم بالبأساء والضراء ، فإذا لم يتضرعوا أفاض عليهم النعم وأمهلهم حتى يأخذهم بغتة ..." .

انتهى من " أضواء البيان " (1 / 352 ـ 353) .

والحاصل :

أن تأثير طول العمر في حساب العبد ، وميزان أعماله : إنما يكون باعتبارين :

الأول :

أن العمر الطويل : حجة من حجج الله على عباده ، فلا يقدر صاحبه أن يطلب مهلة العمر ، وطول الزمان الذي يعينه على العمل الصالح ؛ فلقد كان ذلك كله ، وأمكنته الفرصة ليعتبر ، ويتعظ ، وينتهي عن غيه ، ويعود إلى ربه ؛ فلم يفعل ، وأضاع الفرصة والزمان ، حتى عاد ذلك كله حسرات عليه .

الثاني :

أن هذا العمر والزمان الطويل ، هو وعاء لعمله ؛ فإما ملأه بصالح العمل ، وإما ملأه بالتفريط ، والتضييع ، وسيء الأخلاق والأعمال ؛ ولذلك لا تزول قدمه يوم القيامة ، حتى يسأل عن ذلك الوعاء : بأي شيء ملأه .

ولا يتصور أن يكون حساب العبد يوم القيامة على مجرد الزمان ، من غير عمل ، فإن ذلك الزمان لا ينقضي على العبد من غير أن يعمل عملا ، يقدمه ، أو يفرط تفريطا يؤخره عن ربه ، وهكذا العمل ، خيره وشره ، لا بد له من زمان ، وعمر يقع فيه .

ولهذا قال الله تعالى لعباده : (كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) المدثر/32-37 .

قال ابن القيم رحمه الله :

" إضاعة الوقت الصحيح ، يدعو إلى درك النقيصة ، إذ صاحب حفظه مترق على درجات الكمال ؛ فإذا أضاعه ، لم يقف موضعه ؛ بل ينزل إلى درجات من النقص !!

فإن لم يكن في تقدم ، فهو متأخر ؛ ولا بد !!

فالعبد سائر ، لا واقف ؛ فإما إلى فوق، وإما إلى أسفل . إما إلى أمام وإما إلى وراء .

وليس في الطبيعة ، ولا في الشريعة ، وقوف البتة ؛ ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طي ، إلى الجنة أو النار ؛ فمسرع ومبطئ ، ومتقدم ومتأخر .

وليس في الطريق واقف البتة ؛ وإنما يتخالفون في جهة المسير، وفي السرعة والبطء : (إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) ولم يذكر واقفا ؛ إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة ، فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة ، فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة " انتهى من "مدراج السالكين" (1/278) .

ومن هنا كان يوم القيامة : يوم التغابن ، وكان يوم الحسرة ، حسرة من ضيع عمره ، في غير طاعة الله ، وقد أخذ الفرصة ، وأعطي المُهْلة ؛ فضاعت الأعمار ، وانقطعت الأعذار !!

والله أعلم .